

٢٩ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح
ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

تمتمة الحوار

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك السمي بالافيانوس oceanus الذي يجري في دائرة حول الأرض ، ويسير في الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذي يجري تحت الأرض في ربوع جدياء حتى يصب في بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هذه هي البحيرة التي تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدرهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل في جسوم الحيوانات . وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه في منطقة شاسعة من النار ، حيث يكون بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط ، يغلي فيها الماء والطين ، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل ، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يختلط بمائها ، وبد أن يتحوى في عدة مياها حول الأرض ، يقوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجتون Pyriphlegethon - كما يسمى - الذي يقذف في كل مكان بفوارات من النار . ويخرج النهر الرابع في الجهة المقابلة ، ويسقط أول ما يسقط في منطقة هجبة متوحشة ، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذي يشبه حجر اللازورد ، وهذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا Stygian River وهو يصب في بحيرة ستكس Styx التي يكونها ، وبعد أن يصب في البحيرة ويستمدد لانه قوى عجبية ، يجري تحت الأرض ، دائراً حولها في اتجاه يضاد نهر بيرفليجتون ، ويلتقي به في بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجري في دائرة ويتدفق في جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجتون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر تلك هي طبيعة العالم الآخر ، فلا يكاد الموتى يصلون إلى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضى في أمرهم بادي ذي

الذي يعلكونه منها ، ويمودوا به إلى سيرته الأولى ، فيتولاه أصلح الناس له ، ولا يستأثر به أحد على غيره ؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع علي الرضا ، فقد كان بمدينة مرو وفيها علي ، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء ، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار ، واستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة ، وجمع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا ، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المروفة بينه وبين عمه إبراهيم بن المهدي ، فقضت على تلك الفكرة الصالحة ، ومضى العباسيون في أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم ، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التي انتهت بها ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراه ، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى في عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبي العتاهية في عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله في تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ .

وروى محمد بن أبي العتاهية قال : آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه :

إلهي لا تمذبي فاني مقررٌ بالذي قد كان مني
فألى حيلة إلا رجائي لمفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا وأنت عليّ ذو فضل ومن
إذا فكرت في ندي عليها عضضتُ أناملِي وقرعتُ سني
أجنُّ زهرة الدنيا جنوناً وأقطع طول عمري بالتمني
ولو أني صدقتُ الزهد عنها تلبتُ لأهلها ظهر المجن
بظن الناس بي خيراً وإني لشر الخلق إن لم تمف عنني

ثم أمر أن يكتب على قبره
أذن حية تسمى
أنا رهنٌ بمضجتي
عشت تسعين حجة
كم ترى الحية ثابتاً
ليس زادٌ سوى التقى
إسمي ثم عى وعى
فأحذرى مثل مصرعي
أسلنتي لمضجتي
في ديار التزعزع
نغذي منه أو دعي
هجر المتعال الصعيري

فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وأنه لمنه لظن عظيم ، ولا بد له أن يسرى عن نفسه عثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايته ، ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسمى ، مادام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هي أدنى إلى إيذائه بما يجز وراهها من أثر ، ومادام في هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين زينون أرواحهم بلائها الصحيحة ، وهي : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق - أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ ، مهياة للرحيل إلى العالم السفلي حين يدركها الموت . فأنتم ، أي سمياس وسيديس ، وباسائر الرجال ، سترحلون في وقت قريب أو بعيد . أما أنا ، فها هوذا يناديني صوت المقدر على حد قول شاعر المأساة ، ولا بد أن أخرج السم عما قريب ، ويجعل بي فيما أظن أن أذهب أولاً إلى الحمام حتى لا يشق على الناس غسل جثاتي بمد موتي -

فلما أن فرغ من الحديث ، قال كريتون : أعتمدك ما تشير علينا به ياسقراط ؟ ألدريك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أي شيء آخر نستطيع أن نعينك في أمره ؟

فقال : ليس عندي شيء بعينه : غير أني أحب لكم ، كما كنت أحدثكم دائماً ، أن تنظروا في أنفسكم ، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجل ، وهو أيضاً فضل مني لكم . ولا ينبغي لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدقتم عما أوصيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها ، فلن تجدي عليكم حماسة الادعاء شيئاً قال كريتون : سنبدل جهداً ، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى ؟

على أي وجه تشاءون ، غير أنه لا بد لكم أن تمسكوا بي ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفت إلينا وأضاف باسنا : لا أستطيع أن أقنع كريتون أنني سقراط ذاته الذي كان يتحدث وبوجه الحوار ، فهو بحسبني سقراط الآخر الذي سيشهد بمد حين جثة هامدة - وهو يسأل : ماذا عسى دفني أن يكون ؟ مع أني قد أفضت في الحديث محاولاً إقامة الدليل على أني مُخلفكم حين أخرج السم ، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم - ويظهر أنه لم يكن للحديث هذا الذي سررت به عن أنفسكم وعن نفسي ، أثر في كريتون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لي الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيل عند المحاكمة :

بده ، إن كانوا أتفقوا الحياة في الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر ، فأنهم يذهبون إلى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيحملون فيها إلى البحيرة حيث يقيمون ويظهرون من أوزارهم ويمانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُقتلهم وينالون جزاء وفاقاً بما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجي لهم اصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجزموا ، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتنديس المعبود وازهاق الأنفس ازهاقاً حزيناً عنيفاً أو ما أشبه ذلك - أولئك ياتي بهم في جهنم لا يخرجون منها أبداً ، فهي لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجزموا اجراماً لا يجيل عن العفو على هولاء - أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم في سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقي من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم - هؤلاء يغمسون في جهنم ، وثرام عليهم أن يصلوا عذابها حولاً ، وفي نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فإلى نهر بيرفليجيثون - فيحملون إلى بحيرة أشيروزيلا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتل ، أو بمن نالهم منهم أساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فان نالهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ومجوا من عذابهم ، وان لم يرحمهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا بمن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضائهم . أما من امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراخهم من هذا السجن الأرضي ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون في مقامهم الطاهر ويمشون على تلك الأرض وهي أبقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يمشون منذ الآن متجلبلين من أجسادهم في منازل أجل من تلك ، يمجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها

إذن ياسمياس ، وقد رأيت هذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغي لنا ألا نعمله لكي ننظر بالفضيلة والحكمة في هذه الحياة ؟ ألا إن الجزء الجليل ، والأمل لعظيم

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذي قدمته عن الروح ومنازلها - فما ينبغي لرجل ذي فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه في رأي حقيق ، وقد اتضح خلود الروح ، أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً

إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينتمون في لذائذ الحس ، فلا تتمجل إذن ، اذ لا يزال في الوقت متسع
فقال سقراط : نعم يا كريتون ، لقد أصاب من حدثتى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً مجنوناً ، وإنى كذلك لعلى حق في ألا أفعل كما فعلوا ، لأننى لا أظن أنى منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة . اننى بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فعلاً ، انى لو فعلت ذلك سخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تمص أمرى فلما سمع كريتون هذا ، أشار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً أن عاد بصحبه السجان يحمل قدح السم ، فقال سقراط : أى صديق العزيز ، انك قد صرنت على هذا الأمر ، فأرشدنى كيف أبدأ . فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تتقل ساقك ثم ترقد ، فيسرى السم ، وهنا تناول سقراط القدح فمدق في الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديماً لم يبرح ولم يتنقع لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قولك إذا سكت هذا القدح لأحد الآلهة ؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : اننا لا نعبدهُ ياسقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال : انى أنهم ما تقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توفقى في رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر . فلعل الآلهة تهينى هذا ، فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفثيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مقتبطاً ، وقد استطاع بمظننا أن يكبح جراح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيتاه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يصد في قوس الصبر منزع ، وانهمز منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى ، وأخذت أعذب نفسى ، حقاً انى لم أكن أبكيه بل أبكى بيمنى فيه حين أقدم مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل أن كريتون ، وقد ألقى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فثبته ، وهنا انفجر أبولودورس الذى لم ينقطع بكأوه طول الوقت ، بصيحة عالية وضعتنا جميعاً موضع الجنان ، ولم يحتفظ بهدوءه منا إلا سقراط ، فقال : ما هذه الصرخة العجيبة ؟ لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسنن صنيماً على هذا النحو ، فقد خبرت أنه يبنى للانسان أن يسلم الروح في هدوء ، فسكوناً وصبراً .
فلما سمعنا ذلك ، اعترانا الحجل وكفكفتنا دموعنا ، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقه مخوران . كما قال - ثم استلقى

على أن يختلف وعدمكم عما وعد ، فقد كان كفل للقضاء أنى سابقى ، ولكن عليكم أن تكفلوا له أنى غير باقى ، بل انى ظاعن راحل ، فتقل بهذا لوعته عند موتى ، ولا يحزونه أن يرى جثمانى يحترق أو يهال عليه التراب . انى لا أحب له أن يتحسر على جدى الماتر ، بأن يرتاع لدفتى ، فتأخذ الحيرة : على هذا النحو تكفن سقراط ، أو هكذا نسيه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شرراً في ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لا يحزن إذن ، أى عزيزى كريتون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجنان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفصل أن يكون ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، بصحبه كريتون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر في أمر الحوار وفي هول المصاب . لقد كنا كمن تكلم في آية ، وأوشكنا أن نقضى ما بقى من أيامنا كالآيتام ، فلما تم اغتساله جرى له بأبنائه - (وكانوا طفلين صغيرين وياغماً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن بيمض نصحه ، على مسمع من كريتون ، ثم صرفهن وعاد إلينا

ها قد دنت ساعة التروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلاً ، وعاد بمد اغتساله فجلس إلينا ، ولكننا لم نفيض في الحديث ، وماهى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأجد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لمت أنهمك ياسقراط بما عهدته في غيرك من الناس ، من سبورة التضب ، فقد كانوا يشورون ويصيحون في وجهى حيناً أمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صاعداً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك لى هذا المكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم على ، فليس التنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد ، فوداعاً ، وحاول أن يحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم قيم قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فأسدع بما أمرتني به . ثم التفت إلينا وقال : ياله من قاتن ! إنه ما انفك يزورنى في السجن ، وكان يمادتنى الحين بمد الحين ، وبما ملتنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفمه فعذه أن يحزن من أجلى فزام علينا يا كريتون أن تفعل ما يريد . مر أهدأ أن يجرى بالقدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهين شيئاً منه فقال كريتون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا في ساعة متأخرة بمد